مسرحية الخليل لتمير غرينبرغ:
الضحية والجلاد على قدم المساواة

ترجمة : سلمان ناطور
منشورات مركز أوغاريت الثقافي-٢٠٠٧م
استعراض أمين دراوشة

مدخل

تدور مسرحية «الخليل» التي للأديب الاسرائيلي تمير غرينبغ[١] حول الاحتلال والاستيطان في الأراضي المحتلة عام ٦٧، وذلك من خلال الصراع بين عائلتين، أحداهما فلسطينية والأخرى يهودية مستوطنة في مدينة الخليل.

١. العائلة الفلسطينية:

تتكون من الجد خضر الكنعاني، الذي كان رئيساً لبلدية الخليل قبل الاحتلال. يعاني من الفقر والمشاكل بسبب الإجراءات التعسفية بحقه وحق عائلته الممتدة. وقد ظهر في المسرحية كشخصية مسالمة ومستسلمة لقدرها، وقانعة بوضعها المأساوي.

أما زوجته سمر، فقد ظهرت كشخصية قانعة هي الأخرى، ولكنها تتحول إلى الفعل المقاوم، عندما تضرب يد الاحتلال عائلتها بقوة، حيث تظهر شخصيتها النقيضة ، فنراها تمسك سكيناً وتحاول طعن الحاكم العسكري، في محاولة أخيرة لمنعه من هدم بيت العائلة، وقلع زيتوناتها.

وهناك مهدي الابن البكر لخضر وسمر، والذي يعاني من مرض عقلي، يجعله طفلاً بجسد رجل.

وتتكون العائلة أيضاً من خليل وزوجته رانية، وهما يمثلان الجيل الفلسطيني الشاب الرافض للاحتلال ومستوطنيه، حيث يظهر خليل مصمماً على انتزاع حقوقه رغم جسامة التضحيات، حيث يفقد طفله الصغير نعيم في خضم الصراع المحتدم.

١ تمير غرينبرغ ولد عام ١٩٥٩ في نتانيا. وهو شاعر ومصمم معماري وكاتب مسرحي. رئيس دائرة التصميم المعماري في كلية «شنكار». مسرحيه الخليل التي ألفها اخرجت كعمل مشترك في بداية ٢٠٠٦ بين مسرح البيما ومسرح الكاميري في تل ابيب.

كما تضم المسرحية شخصيات عربية اخرى: فهناك الطفل الفلسطيني المشرَّد، الذي لا يملك عائلة، ويقيم على الحاجز في محاولة لكسب رزقه، عن طريق تأجير نفسه لأية سيارة فلسطينية تحاول العبور، لأن هناك شرطاً يحتِّم على السيارة المارة أن يتواجد فيها طفل.

والتاجر أحمد الذي يرتكز عمله على انتظار هدم قوات الاحتلال لبيوت الفلسطينيين، من أجل شراء حجارتها الأصلية وبيعها لليهود، والمستعد دائماً للقيام بأي شيءٍ مقابل الحصول على المال.

٢. العائلة اليهودية الإسرائيلية:

تتكون من الأب بوعز ميمون الحاكم العسكري لمدينة الخليل، وزوجته راحيلي وأبنائهما إليئاف وإياله والصغير يوتام.

يتصف بوعز بالجبروت والقوة، متسلحاً بمنصبه والقوات التي تحت أمره. يتعرض لمحاولة اغتيال من قبل خليل، ويقتل فيها طفله يوتام، ويبحث وعائلته عن الانتقام ليس من عائلة الكنعاني وحسب، ولكن من المدينة بكاملها.

بدت شخصية زوجته راحيلي متناقضة، فمرة تبدو قوية وتسعى وراء الثأر والانتقام، وتعبر عن أحقية اليهود بأرض الخليل، ومرة أخرى تشكك بكل شيء وتفقد إيمانها بالله وتشكك بجدوى وجودها وعائلتها على أرض الخليل التي تشهد صراعاً دامياً.

أما ابنها إليئاف، فهو شاب يافع، يتصف بالكره الشديد للفلسطينيين، وينظر إليهم بأنهم قطيع من القتلة والمجرمين، وإنه يجب التخلص منهم صغيراً وكبيراً لأنهم يشكلون خطراً على اليهود.

لذا نراه مدججا بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يؤمن به.

أما الفتاة الصغيرة إياله، البالغة من العمر الثانية عشرة، فتظهر في البداية وقد انحازت لعائلتها في حقدها على الشعب الفلسطيني، وتطلق عليه الصفات النمطية التي نشأت على سماعها.

ولكن عندما تلتقي بمهدي تتغير نظرتها للفلسطينيين، وتحاول وإياه بناء عالم خيالي، خال من الصراع والدم.

كما تحتوي المسرحية على مجموعة من الشخصيات التي لعبت دوراً مهماً، كالجندي شموئيلي، الذي يخدم على الحاجز العسكري ويمنع الفلسطينيين من التنقل لأتفه الأسباب، حيث ينفذ الأوامر بصورة عمياء ويتساءل دوماً، عن الأسباب الكامنة

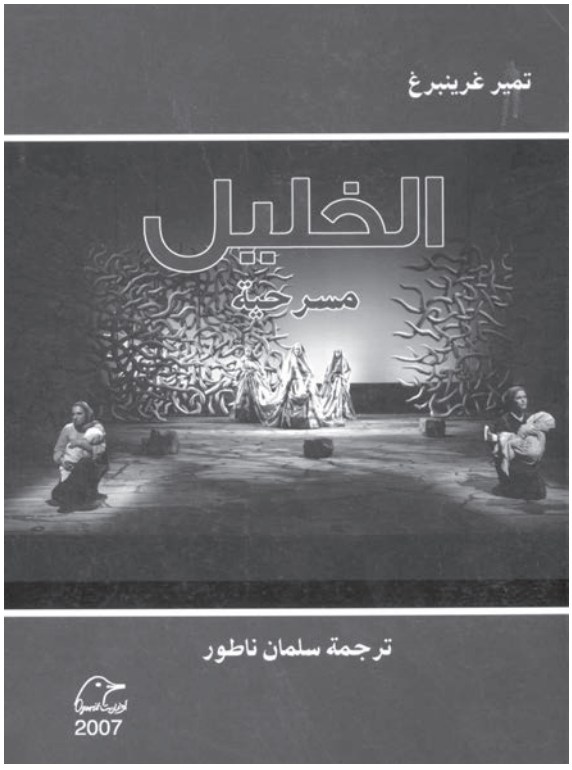

وراء وجود الحاجز العسكري، والفائدة المرجوة منه، وبالتالي يشكك بسبب وجوده نفسه على أرض مدينة الخليل.

وهناك شخصية مساعد الحاكم العسكري الضابط رونين، الذي يتصف بالعنف والشراسة.

بنية المسرحية:

بناء المسرحية كلاسيكي، فهو يرتكز على فصول ومشاهد، وحركات داخلية لإشعال الصراع، والخاتمة التراجيدية التي تظهر تأثر الكاتب بنهايات شكسبير المأساوية. وبرع المؤلف في إضافة شخصيات تمثل الطبيعة، ويبدأ مسرحيته في استهلال، يتحدث فيه (أشجار زيتون، يوم ربيعي دافئ، الأم الأرض).

يعلن يوم ربيعي دافئ عن قدومه إلى مدينة الخليل، بأن طيّر فراشات فوقها وعطّر الأزقـــة، ويسأل أشجار الزيتون، لم تصمتون؟ لم لا تفرحون لرؤيتي؟

ولا يفرح لقدومه سوى شجرة زيتون صغيرة، قائلة: (كم انتظرت عودتك هذا العام لأول مرة منذ غرسوني..زيتوناتي تتراقص شبقاً لكي تقطف». (تمير غرينبرغ، ترجمة سلمان الناطور، مسرحية الخليل، ٢٠٠٧م، ص ١١).

هنا تتدخل الأم الأرض بغضب طالبة من يوم ربيعي دافئ المغادرة، لأنه سيحل محله يوم شتائّي غائم. وتقول بأن الله خلقها

لتكون مرعى للحياة، تنبت حقول القمح، وخلقت لتكون سريراً للعشاق، ووسادة تتوسدها أحلام الشعراء.

ولكن منذ شهرين، والأم الأرض لا عمل لها سوى احتضـــان الأموات، إذ «يحضرون إليّ أمواتاً لم تقبّل شفاهم امرأة، وآخرين فغرت في صدورهم ثقوب سوداء ويحضرون إليّ أمواتاً عيونهم ثاقبة، وآخرين يقبضون على المسدس أنا أقوم بواجبي. هذه سنة الحياة». (المرجع السابق، ص ١٤).

ويبتسم يوم ربيعي دافئ ويقول: إن ترابك بحاجة ليد لطيفة وحنونة، اعتمدي عليّ أيتها العجوز، فقبل نهاية النهار «سوف أجعلك تشعرين بأنك جميلة وشابة». (المرجع السابق، ص ١٤).

وترد الأم الأرض: يا مغفل، ألا تفهم؟ اذهب، ارحل، انصرف، فعندما نلتقي ثانية، ستغرق في الدموع، كونك لا تصغي إليّ.

ويخرجون، ليبدأ المشهد الأول من الفصل الأول.

تأثير الآخر الفلسطيني على الأنا الإسرائيلي:

بوعز ميمون هو الحاكم العسكري لمدينة الخليل. يطلق الشاب الفلسطيني خليل النار عليه محاولا اغتياله، فيصيب طفله الصغير يوتام ابن الثلاثة أعوام ويقتله؟

ترفض زوجته راحيلي تصديق أنه مات. بوعز يتصف بالقوة والسلطة ويقول لها:

« وبدافع العادة، طلبت بأن تصدر الأوامر لكي تتحرّك جميع الوحدات, أمرت الجنود بأن ينتشروا ويتمرسوا ويهاجموا ...

بأوامر مني ستبنى وتهدم بيوت، وبأوامر مني سيتحرك آلاف الرجال والسيارات ولكن ما فائدة هذه القوة إذا انتهت حياة الولد بين يديّ؟». (المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩).

نستشف من هذه الأقوال أن أي حدث، كاف لجعل الحاكم العسكري يستخدم كل القوة التي بحوزته لتأديب سكان الخليل حتى أن الأمر أصبح عادة.

ويعود لرشده متسائلاً بحيرة وألم عن فائدة الجبروت إذا لم يحمه ويحمي طفله.

وبوعز رجل متدين ويطالب زوجته بدفن الطفل لأن التأخير في الدفن «خطيئة لا تغتفر». (المرجع السابق، ص ٣٢).

يذهب بوعز على رأس فرقة كبيرة من الجنود إلى بيت أبو مهدي الكنعاني، وعندما يصل يطالب أبو مهدي بتسليم ابنه خليل ويهدده قائلا: «وإنْ كان عليّ أن أهدم المدينة فإنني مصرٌّ على إلقاء القبض على المجرم». (المرجع السابق، ص ٤١).

هنا يحدثنا المؤلف عن العقاب الجماعي بكافة تجلياته وقسوته.

وعندما يفتش بوعز البيت لا يعثر على أي دليل لوجود خليل فيه, ويأتي أخوه الأكبر مهدي المريض عقلياً وعليه بقع دم أخيه, فيقرر بوعز اعتقاله على أمل أن يحصل منه على معلومات تدله على مكان اختباء خليل.

ويصدر الأوامر بهدم بيت أبو مهدي وقلع الأشجار المثمرة أمام بيته، ويقول لنائبه رونين: أنا لا أصدر الأوامر بدافع الانتقام بل هو القانون إذ «يجب هدم البيوت للردع» ص ٧٣.

وعندما يعترض أبو مهدي بأن البيت له، وليس لابنه، يجيبه بوعز «الأنظمة واضحة سيد كنعاني، البيت الذي يسكنه مجرم يهدم». (المرجع السابق، ص ٨٨).

وترتمي سمر عند قدمي بوعز قائلة له «ابنك قتل حفيدنا وابننا المريض تعرض للتعذيب والكبير متوقع أن يعتقل مدى الحياة، ... ألم ندفع الثمن غالياً». (المرجع السابق، ص ٨٨).

يجيبها بوعز «ابني أخطأ ولم يقصد القتل». (المرجع السابق، ص ٨٩).

ويكمل حديثه محملاً الشعب الفلسطيني والعائلة الفلسطينية ما يجري وليس الاحتلال كحالة عنف قائمة (لو أنكم ردعتم ابنكم لما حدث كل ذلك». (المرجع السابق، ص ٨٩).

هنا يتذكر خضر وسمر عرسهما وأحلى أيامهما التي قضوها في هذا البيت، وتطالب سمر الحاكم العسكري بأخذ غرامة، أو سجنهم مقابل عدم قلع أشجار الزيتون، وهدم البيت، ولكنه يجيب بازدراء :هذا ليس انتقاماً، يجب القيام بخطوات قاسية حتى لا يموت الناس. فإذا «عرف كل مجرم أن كل نقطة دم تسفك من يهودي سوف يدفع أهله وأبناؤه ثمنها فسيفكر مرتين قبل أن يحمل مسدساً». (المرجع السابق، ص ٩٠).

وترفض رانيا دفن ابنها ويثور المواطنون الفلسطينيون دفاعاً عن الحياة والأرض ويقتل عدد منهم ويصاب آخر.

يحاول الحاكم العسكري أن يظهر بمظهر إنساني، وهو يعبر عن أسفه لأبي مهدي لقتل زوجته، وهدم بيته وتشريده، وعدم اتخاذه إجراء رادعا بحق رانية لأنها فقدت طفلها على يد ابنه.

ويقول بوعز لعائلته، أنه هدم بيت أبو مهدي، ودمر الكرم، وأنه أضطر لقتل أم مهدي، لأنها شكلت خطراً على حياته، بعد أن حاولتْ طعنه بسكين، و«كل الشهود رأوا ذلك وهذا ما سيقولونه في إفاداتهم أمام اللجنة». (المرجع السابق، ص ٩٦).

يحاول بوعز، تذكيرنا أن لديهم أنظمة وقوانين، وإنه عند قتل المدنيين، يتم تشكيل لجان تحقيق في الموضوع.

ولا أحد يعرف سر أبيه إلا ابنه إليئاف الذي يضحك عندما يخبره أبوه بحادثة قتل أم مهدي، ويقول له: «يا أبي! قل للجنة ما شئت أن تقول، بيني وبينك، أنت قتلتها انتقاما». (المرجع السابق، ص٩٧).

وعندما تحدث انتفاضة الفلسطينيين في الخليل، يأمر بوعز بفرض حظر تجوال حتى على اليهود، وهنا يتدخل الحاخام يوئيل كوهين شقيق راحيل الأصغر، ويقول بذهول: «على اليهود؟ منع تجوال؟». (المرجع السابق، ص ٩٨).

وفي الأثناء يأتي التاجر الفلسطيني، ليبلغ عن مكان خليل مقابل المال وتسهيلات لعبور الحواجز. ويهاجم بوعز البيت الذي يختبئ فيه خليل، ويجري اشتباك كبير، ويسقط قتلى وجرحى من الجميع، ويتمكن خليل من النجاة.

ويسقط ابنه إليئاف قتيلاً بيد خليل. ويخبرنا الحاخام يوئيل، عن قوة وصلابة بوعز عندما وارى ابنه الثرى، مخاطباً راحيل:

«زوجك! أية قوة منحها الله لهذا الرجل؟ لقد صلى بصوت نقيّ وجهوريّ اخترق السماء». (المرجع السابق، ص ١٣٣).

ولكن الحقيقة أن بوعز يصاب بالإحباط واليأس، ويرجع إلى بيته محطَّماً، ويخبر الجميع أنه مرهق ومتعب.

وفي الخليل تنتشر الجثث، فالفلسطينيون يرفضون دفن قتلاهم، فانتشرت الأمراض، والجرذان ملأت المديمة، ودخلت البيوت والمستشفيات والمدارس.

ويقول الحاخام يوئيل: «يا بوعز! إن أركان الدولة تهتزّ». (المرجع السابق، ص ١٣٤).

فيصرخ بوعز بأعلى صوته: «مؤسسات الدولة قوية، أنا المسؤول».

(المرجع السابق، ص ١٣٤).

ويترنح ويتهاوي، ويقول لرونين أن يصمت، ويضيف: «أنا مرهق يا رونين ويجب أن أنام». (المرجع السابق، ص ١٣٥).

ويخلع الرتب العسكرية، ويعلّقها على كتفي رونين، ويردد أنا ذاهب إلى النوم. ثم يخلع قميصه.

يخبره رونين قائلا: «نحن بحاجة إليك أيها القائد». (المرجع السابق، ص ١٣٥).

ويرد الحاكم العسكري: «لم أقرر مصائر، ولن أختار بدائل، سأستلقي على السرير وأخلع حذائي وأنام». (المرجع السابق، ص ١٣٥).

ضجر بوعز من كل شيء، ويشعر أن الحياة أخذته إلى حيث لا يشتهي، ويبدأ بالاستسلام لها، وعندما يتكلم رونين عن الجنود القتلى والمرضى، الذين فشل الأطباء في علاجهم، لا يسمع بوعز شيئا مما قيل، يخلع نعليه ويتمدّد على الأرض، قائلاً:

«نعم، سوف أدع التعب ينتشر في الدم كالمخدر، وعندها رويداً رويداً، سأغمض عينيّ، وانتظر اللحظة الطيبة». (المرجع السابق، ص ١٣٦).

يناديه رونين، وبوعز ما زال يتحدث:

«أنا غارق في السرير

وفي أوهام العالم بكلّ ما فيه من غباء وعذاب

الضجيج الذي لا يتوقف أبداً

كله يتغلغل في الوسادة

وعندها سيسقط الجسد

وسيتبدد في الظلمة كلّ ما تصورت أنه بالغ الأهمية». (المرجع السابق، ص ١٣٦).

يطالب رونين باستدعاء قوات إضافية إلى المدنية، لكن بوعز يخاطب زوجته:

«اجمعي ثيابنا وألقي بها في برميل النفايات.

والأفضل أن تحريقها. نعم، احرقيها بالنار». (المرجع السابق، ص ١٣٦).

يطالب الحاكم العسكري بتدمير الماضي القاسي والكئيب، ويحاول مع راحيلي حرقه؛ لأنه عرف بعد فوات الأوان أن حياته السابقة لم تكن ذات قيمة حقيقية، ولم تجلب عليه سوى الأسى والألم، فالفلسطيني يرفض أن يغادر، ورغم كل المآسي التي حلت به ما زال قادر على المقاومة.

ويستمر رونين بالمناداة: أيها القائد. ويجيب بوعز: أنت تشوش تفكيري. وهنا تتدخل راحيلي لتفهم رونين، ما لم يستطع استيعابه، وتقول له: كل شيء انتهى، ولم يعد بوعز قائدك بعد الآن.

فقد تخلى عن كل شيء يربطه بالجيش وجبروته وقسوته وعنفه، الذي لم يجلب له الحماية بل الحسرة والموت لأولاده.

الفلسطيني يخلخل العائلة الإسرائيلية، ويفقدها إيمانها

تظهر شخصية راحيلي من المشهد الأول، حيث تحاول الوصول إلى طفلها يوتام المصاب بطلق ناري أثناء تواجده مع والده في نزهة مع أطفاله، وهذا ما تخبرنا به أيالاه الابنة البالغة ١٢ ربيعاً: «قال

أبي أننا سنخرج في يوم ربيعيّ جميل لتناول الطعام». (المرجع السابق، ص ٢١).

تظهر راحيلي ضعيفة ومنهارة في البداية، وتحمل نفسها مسؤولية ما حصل لطفلها كونها منعت زوجها من استلام وظيفة جديدة خارج الخليل، وهي رفضت وصممت على البقاء، قائلة له: «سنعيش بالقرب من ليئة وأخي يوئيل، ونسكن بجانب قبور أجدادنا، يعقوب وإسحاق وإبراهيم..». (المرجع السابق، ص ٢٣).

وهو وافق لأنها يحبها ولا يستطيع أن يرفض لها طلباً. عندها قالت لها زوجة أخيها الحاخام ليئة، قائلة: «وهل العودة إلى بيت جدودك خطيئة؟». (المرجع السابق، ص ٢٣).

ترجع راحيلي إلى الله وترجوه، أن يشفي طفلها، وتنذر نذراً إنْ أشفاه الرب فهي لن تكون بعد اليوم شاردة الذهن، بل ستهتم «كل يوم بعمل البيت، ولن أغرق في أفكار عبثية، وعوالم أكبر من قدرتي العقلية.

سأهتم بطبخي، وسأنجز ما أبدأ به. فدعه يعيش يا ربي». . (المرجع السابق، ص ٢٤).

ويدخل عليها بوعز، حاملاً الطفل ميتا، وتنخرط بالبكاء، وتقول: الذنب ذنبي.

ويأخذ بوعز بمواساتها، ويخبرها أن قرار البقاء في الخليل، اتخذناه معاً، وإننا سنقف على قبر ابننا معاً.

وتسأل زوجها: «يا بوعز، لماذا مات ابننا يوتام؟». (المرجع السابق، ص ٢٩).

كان يمكن للمسرحية أن تنطلق من هذا التساؤل المشروع، للولوج إلى أتون الصراع وأسبابه الحقيقة ونتائجه الكارثية، لكن الكاتب هنا يفشل أن يكون كاتبا ثورياً يسمي الأشياء بمسمياتها، ويكون الجواب على هذا السؤال المصيري بسيطاً وواضحاً.

«إنه خليل، ابن الكنعاني، أمس زارني والده في مكتبي واليوم ابنه الصغير قتل ابني». (المرجع السابق، ص ٢٩).

فالطفل قتل، لأن الفلسطينيين شعبٌ مجرمٌ، قاتلٌ بالفطرة، ولأنهم لا يعرفون الوفاء، بل الغدر والخيانة.

تقول الفكرة هنا أن «اليهودي يريد أن يتعايش مع العربي الفلسطيني، يمد اليهودي يد الأخوة فيرفض الفلسطيني». (هلسا، ١٩٩٥، ص ٥٤).

تبحث راحيلي عن الانتقام المشبع بالدم، وتخاطب بوعز زوجها والحاكم العسكري، قائلة: «اقبض عليه....واهدم بيته.

ولتنصب عائلته خيمة عزاء حداداً عليه». (تمير غرينبرغ، مرجع سابق، ص ٢٩).

فهي لا تجد لها عزاءً إلا أن ترفض دفن طفلها، قبل أن ينزل زوجها الحاكم العسكري العقاب الرادع بحق العائلة الفلسطينية، وتقول: «تستطيع أن تغضب، وأن تحتقرني، ولكنني لن أدفنه». (المرجع السابق، ص ٣١).

هنا تظهر راحيلي قوة شخصيتها؛ إذ ترفض الأم دفن طفلها، وتذهب إلى بيت خضر الكنعاني، وكان زوجها ترافقه قوة عسكرية كبيرة قد سبقوها إلى هناك.

وتجول ببصرها وتقول: الأب والأم، والزوجة والطفل كلهم موجودون، ولكن أين المجرم؟

وتتحرك بين أفراد العائلة ولا تنتظر جوابا، وتضيف:

« (إلى سمر) الابن الذي أرضعته أطلق عليه دون تردد.

(إلى رانية) الابن الذي أنجب ابنك قتل ابني». (المرجع السابق، ص ٤٥).

وتتكلم رانية مدافعة عن زوجها، أنه ليس بقاتل، لقد أراد قتل زوجك الذي هو الحاكم العسكري، الذي يصدر الأوامر بالقتل والهدم والتدمير والاعتقال، ومصادرة الأراضي.

وترد راحيلي بعنف وقسوة: «ليت ابنك يموت بمشيئة الله، ليت زوجك يسقط في هاوية من الحزن حتى أيامه الأخيرة». (المرجع السابق، ص ٤٦).

وينتهي المشهد بخطف الطفل نعيم ابن السبعة شهور من حضن أمه من قبل إليئاف، ويسقط الطفل من يده ويموت.

واليهود يهربون إلى الخارج.

وفي مشهد مؤثر، تتحاور فيه «الأم الأرض» مع «الأم رانية» و «الأم راحيلي»، إذ جاءت تأخذ جثتي الطفلين لدفنهما، وتقول «الأم الأرض» لهما: «قومي يا راحيلي، قومي يا رانية، جئت لكي أستعيد الأمانة». (المرجع السابق، ص٥٩).

فترد رانية بألم: «لماذا جئت؟ ألكي تزعجيني في حدادي؟ لا أريد رؤية وجه أحد». (المرجع السابق، ص ٥٩).

وترد راحيلي: «من أنت لكي تطلبي ابني؟». (المرجع السابق، ص ٥٩).

وترفضان دفن طفليهما، وتغضب «الأم الأرض»، وتتوعد بعدم قبولها جثتي الطفلين، لأنهما لن يدفنا في الوقت المناسب، وتقول بغضب: «كل ميت لا يدفن في الوقت الصحيح، لن يجد عندي

مستقرّا». (المرجع السابق، ص ٦٢).

وتفقد راحيلي إيمانها بالله، وتعتبر أن الله لم يكن على صواب، عندما وافق على موت يوتام الصغير. وتقول: «أخطأ الله عندما أخذك! هو، العليّ العظيم–أخطأ».

(المرجع السابق، ص ٧١).

ويعبر بوعز عن خوفه وقلقه من أن يفقد المرأة التي أحب، ويتحدث عن وجهها «أنه يذبل ثم يشتعل...إنني أفقد المرأة التي يعزّ عليّ عرقها ودموعها أكثر من حياتي». (تمير غرينبرغ، مرجع سابق، ٢٠٠٧م، ص ٧٣).

ويقرر دفن يوتام حتى لو كان ذلك ضد رغبتها، فعدم موافقة رانية على دفن طفلها نعيم أدى إلى التهاب المشاعر الفلسطينية، وخروج الجماهير للتظاهر والاشتباك مع قواته المدججة بالسلاح غير آبهين بالموت.

تعاني راحيلي، وتحس أن حياتها اضطربت واهتزت، وأن كل شيء ضاع، فعندما يقول لها أخوها الحاخام يوئيل، أن يوتام في الجنة، ترد عليه، وكيف عرفت ذلك؟ فيقول مرتبكا نحن يهود!

وتعبر عن عدم تصديقها لقوله، وتقول: « عندي لا شيء على ما يرام، كل شيء عندي مهزوز». (المرجع السابق، ص ٩٥).

ويزداد ارتباكها، وتفقد الثقة بكل شيء، عندما يلقى أمامها جثتيّ ابنيها، إليئاف ويوتام. وتهمس بحزن: «كذبوا علينا يا بوعز كذبة كبيرة. من أعماقنا صلّينا للربّ، ولكن للأسف والعذاب، وكل الصلوات والتوسلات، تلاشت، لا طهارة، ولا رحمة، لا حكمة ولا إدراك، كلمات وروح، يا بوعز، وصلوات وأيّة صلوات». (المرجع السابق، ص ١٢٥).

ويحاول بوعز مواساتها بالقول، أنه ما زال هناك ما يعيشان من أجله، ابنتهما أياله. ولكنه لا يتمالك أعصابه، فيصرخ صرخة ألم ويضرب بقبضته الأرض، فتقول له راحيلي بلا مبالاة: «لا تصرخ يا بوعز على السماء! هناك لن تجد شيئاً سوى الظلام والنجوم ادفنهما. يمكنك أن تدفن الأثنين». (المرجع السابق، ص ١٢٥).

وتمسك رأس إليئاف وتضعه في حضنها، وتهز جسدها وهي تتحدث:

«أحببت وجهك وابتسامك وخديك

أحببت عنادك وشكواك

أحببت تجاهلك لأمك أحيانا وفظاظتك

كان ينقصك القليل لتصبح رجلا». (المرجع السابق، ص ١٢٦).

وتعبر عن الحسرة التي تعتصر قلبها، وتتحدث أن الجميع أهمل الأولاد، فتقول:

«لم أبك عليه بما فيه الكفاية

وكيف أكتفي بالبكاء عليك؟

(تبتسم) أصغوا أيها الأولاد، أهملناكم هنا على الأرض

ولدتم بلا هدف وانتزعتم بلا هدف». (المرجع السابق، ص ١٢٧).

وتستسلم لأوامر زوجها بضرورة دفنهما.

تقترب من اكتشاف السبب وراء كل هذه المآسي والقتل، وعلى الرغم من أنها لا تحمل المسؤولية لجهة ما هنا إلا أنها بدعمها وتأييدها لزوجها الحاكم العسكري بقراره، ترك عمله في الجيش، فإنها تقول لنا أنها كانت على خطأ، عندما صممت على البقاء في الخليل مع أن الفرصة كانت سانحة لها ولعائلتها بالخروج من هناك.

خليل المقاوم والرافض للاحتلال

خليل هو الابن الثاني لخضر كنعاني، ويبلغ الرابعة والعشرين من العمر، ولا يفوتنا هنا المعنى الدلالي لاسمه، حيث سميّ نسبة إلى نبينا خليل الله إبراهيم. ويدل اختيار الاسم من قبل الكاتب على اعترافه بحق الفلسطينيين في أرضهم، أقلّه مدينة الخليل مسرح أحداث المسرحية.

يتصف خليل بالإباء والكرامة والشجاعة، ويرفض رفضاً باتاً التعايش مع الواقع المرير والقائم على استيلاء مجموعة من المستوطنين اليهود على أراضي مدينته واحتلال مقر البلدية، وطرد والده منها بعد أن كان شخصاً اعتبارياً محترماً بصفته رئيسا للبلدية قبل قدوم المستوطنين.

لذلك يقوم بمحاولة اغتيال الحاكم العسكري الإسرائيلي بوعز بعد أن يشاهد والده خارجا من مقر البلدية السابق ومقر الحاكم العسكري حالياً ذليلاً بعد أن رفض الحاكم إعطاءه تصريحا لقطف زيتوناته.

ولكن الرصاصة تصيب طفل الحاكم العسكري، وترديه قتيلا، ويصاب خليل بجرح عميق في ركبته.

يظهر في بداية المسرحية، خليل مستلقيا على الكنبة وهو ينزف، ووالده يعاتبه على إطلاق النار على الطفل يوتام.

ولكن خليل يحتد، ويقول أنه صوب بندقيته على رأس الحاكم العسكرية، ولم يقصد بتاتاً إصابة الطفل، ولكنها مشيئة الله.

ويتساءل خليل، إذا كان المطلوب منه أن ينحني أمام اليهودي، ويوجه حديثه لوالده، انظر يا أبي إلى أشجار الزيتون المنحية من ثقل الثمار، ولكن الاحتلال يمنعنا من قطفها، ثم إنك كنت رئيساً للبلدية قبل أن يجيء اليهود، ويحولوا مكتبك إلى مقرّ عسكري، ويرفعوا علم إسرائيل بدلاً من صورة جدي الحبيب.

إذن خليل يحدد موقفه واتجاهه الرافض قطعياً للاحتلال والاستكانة له والرضا بالأمر الواقع، ويحمل سلاحه المقاوم ضد من أهان والده وصورة جده، وصادر أرضه، ومنعه من دخول بيّارته، وفتح أبواب الجوع في المدينة.

ويناقش والده بألم وحسرة، قائلاً له، رأيتك يا أبي وأنت تقف كالمتسول أمام بوابة القيادة، البوابة التي كان أهل الخليل يقفون لاستقبالك عندها، وقفت في المكان الذي نشأت فيه واستخدمته كملعب في طفولتي. «وتوسلت أمام جندي أهبل ووقح ليسمح لك بلقاء الحاكم».(المرجع السابق، ص ٣٧).

انتظرت يا أبي، تحت المطر الغزير، وتوسلت الجنديّ أن يسمح لك بالدخول السقيفة لتتقي المطر، ولكنه رفض، كم انتظرت؟

«بعد ثلاث ساعات فقط، سمحوا لك بالدخول. كم من الوقت خصص لك جلالة الحاكم بوعز ميمون، خمس ثوان؟». (المرجع السابق، ص ٣٧).

ويجيب الأب بانكسار، ذهبت لأقدم لتصريح يسمح لنا بقطف الزيتون، ولكنه رفض الأسباب أمنية! وعندما هممت بالمغادرة، قدم لي قرضاً. هنا تعجب خليل، وقال: «ها! كمّ هو نبل. يد تنهب واليد الأخرى تعطي، إنه يريد التحكّم بك بوساطة المال». (المرجع السابق، ص ٣٨).

ويرد الأب: لم يطلب وصلاً، ولا أن أعطيه معلومة.

وبهدوء يقول خليل: «تأخذ المال من شخص كان قدومه إلينا مأساة!». (المرجع السابق، ص ٣٨).

ويضيف بصوت خافت: أنا لست غاضباً منك، ولكني غاضب على النذل اليهودي الذي أخذ يضحك عند خروجك وقال شيئا لك ولكنك لم تلتفت إليه. ذهبت تجر نفسك، وقفت مرتبكاً، ومنحي الرأس، لقد رأيتك أنساناً مهزوماً.

هنا يصفع خضر ولده صفعة قوية، قائلاً: سأفعل أي شيء حتى لا يحتاج حفيدي شيئاً.

وعندما يقبل الجيش الإسرائيلي، يحاول خليل النهوض، يساعده والده، يتبادلان النظرات، ويضحك خليل ويقول: «هذا الجسد هو أنموذج فقط، في هذا اليوم حرّرت نفسي». (المرجع السابق، ص ٣٩).

وينطلق في تصميم أكبر على مقارعة الاحتلال وهزمه.

وفي مشهد يدلل على قراره بالمواجهة مهما كانت الظروف، عندما يلتقي رانيا وهي تحمل طفلهما القتيل، فيقول لها: «أشد على أيديك، بقرارك الشجاع، هيّا يا حبيبتي، أخرجي إلى الشوارع بجثة طفلنا، وثوّري الناس، واستدعيهم من كل مكان، من البيوت والأسواق، ومن المدارس والمساجد... استصرخيهم «باسم أبي الذي يحبه الجميع، استدعيهم للدفاع عن البيت وأنت لا تخافي. سيري بإيمان في المقدمة وارفعي جثة ابنك المقدّس نحو السماء». (المرجع السابق، ص ٧٦).

وفي مقولة تعبر عن إيمان عميق بالنصر، والحلم القادم، يضيف خليل: لا تجزعي، ففي المستقبل «ستأتي أيام نلتحف بها بعضنا وسننجب طفلاً آخر يا رانيا. طفلاً حيّا». (المرجع السابق، ص ٧٦). لكن الآن نحن بحاجة للمقاومة لدحر الظلم والظلام.

وفي مشهدٍ قاسٍ وعنيف، يلتقي خليل وإليئاف القادم لقتله في ساحة بيت حدثت فيه مواجهة عنيفة بين الجيش الإسرائيلي والمقاومين ، حيث دماء القتلى ما زالت ساخنة. ويتمكن خليل منه، ويصرخ: «قاتل ابني. ابن قاتل أمي. القتل عندكم ينتقل بالوراثة، انظر حولك يا حقير كل الممددين هنا أخوتي لقد دافعوا عني بأجسادهم». (المرجع السابق، ص ١١٥).

ويتذكر خليل صديقه العزيز، ويقول لإليئاف، انظر هذا الميت دون وجه، هو صديقي ورفيق دراستي، هذا ناجي عبايات «قالوا عنه إنه سيكون لاعباً ممتازاً، سيصل إلى أوروبا». (المرجع السابق، ص ١١٨).

ويطالب إليئاف أن يغمس يده في دم صديقه ويمسح به وجهه، وبعد أن يقوم بذلك، يقول خليل: «هكذا أفضل..هذا القناع يكشف عن وجهك الحقيقيّ يا ابن الشيطان». (المرجع السابق، ص ١١٩).

ويتوسل إليئاف طالباً الرحمة، ويتردد خليل، ثم يقول: «عيناك الزرقاوان تقولان «ارحمه»، والله الذي في قلبي يقول ارحمه، وقلبي يقول ارحمه، ولكن والدك لم يعلّمني الرحمة». (المرجع السابق، ص ١١٩).

ويضغط خليل بيديه القويتين على عنق إليئاف، ويخنقه حتى الموت. ويخاطبه خليل، «آه، أحسست بضربات قلبك في يدي. نفسك لامس خدّي. عندما انفجرت باكياً وتساقطت دموعك الساخنة على يدي، كدت أخفف القبضة لكي تتنفس». (المرجع السابق، ص ١١٩).

ولكن أنّى له ذلك، وصورة والده المنكسر، وأمه الطيبة وجسدها المسجى على الأرض، وطفله نعيم ذو السبعة شهور، وعظامه المتكسرة والمهشمة، وحزن رانيا، لم يترك الاحتلال له فرصة، ليبقي شيئاً من الرحمة في قلبه للتعامل مع مستوطنيه.

ويكبر ألم خليل، بعد أن يلتقي والده في الخيمة وسط العاصفة بعد أن هدم بيتهم، ويراه مريضاً وحزيناً، يصارع الموت، فيتقدم منه ويعانقه ويتهاوى جسد خضر ويخرج أنفاسه الأخيرة.

وينظر خليل إلى رانية، قائلا: «أقسمت باسم أمّي، وباسم نعيم، أن أمحو أيّ ذكر لذرية الحاكم العسكري، والآن أقسم باسم أبي، أيضا».

(المرجع السابق، ص ١٤٠).

وينفذ خليل قسمه ويردي الحاكم العسكري، وعندما يحاول قتل الفتاة الصغيرة أياله، يمنعه أخوه مهدي، ويسقط خليل قتيلاً من أثر الجروح الكثيرة في جسده.

اللقاء الإسرائيلي الفلسطيني وفق النظرة الإسرائيلية

مهدي هو الابن البكر لخضر الكنعاني، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، ويعاني من تخلف عقلي، يحب أن يعزف على الشبابة، يساعد أخاه خليل على الاختباء، وعندما يرى الحاكم العسكري الدم على ملابسه، يحاول استدراجه ليخبره مكان خليل، وعندما يفشل في ذلك يعتقله، ويعرضه لتعذيب قاسٍ، ولكن يفشل في إجباره في إعطائه المعلومات التي يرغب بها. وبعد فقدان الأمل به يوضع في الجيب العسكري ويلقى أمام بيته وهو يعاني من جروح وكدمات.

أما أياله ابنه بوعز وراحيلي، فتبلغ الثانية عشرة من العمر، وتتعرض لموقف حرج وصعب، عندما تكون برفقة والدها وأخوتها في نزهة ، فيطلق خليل النار على والدها الحاكم العسكري في محاولة لاغتياله، ولكنه يصيب الطفل الصغير يوتام ويرديه قتيلاً.

وعندما ترى أمها بقعة دم على فستانها، تتهرب أياله، وتقول: «هذا ليس دمي، قال أبي إننا سنخرج في يوم ربيعيّ جميل لتناول الطعام ولكنني رأيت قلبه ينبض مثل فم صغير يطلق القبلات، الآن أريد أن أنام». (المرجع السابق، ص ٢١).

وتلتقي مع مهدي بتدخل مباشر من الطبيعة ممثلة بيوم «ربيعي دافئ». الذي طار فرحاً لسماعه أياله تغني وتعزف على القيثارة، وتمنى أن يأتي فتى، فجاء مهدي وهو يعزف على الناي وينسجم العزف مع عزف أياله.

ويقول «يوم ربيعي دافئ» له: «تعال يا شاب! لا تخجل! لأجلك ولأجلها أنا خلقت». (المرجع السابق، ص ٧٨).

ولكن أياله، تغضب وتقول لمهدي: «انصرف! هذه الأرض لنا. أرض آبائنا إبراهيم وأسحق ويعقوب مدفونون هنا في المغارة». (المرجع السابق، ص ٧٨).

ويخاف مهدي ويبتعد، ولكن «يوم ربيعي دافئ» يتدخل ويطلب منه البقاء والعزف.

وتسأل أياله مهدي: «هل تعدني بألا تمسني بسوء». (المرجع السابق، ص ٧٩). وتضيف: «أنا لا أخافك. قال أبي أنك متخلّف عقليّا». (المرجع السابق، ص ٧٩).

ويتحاوران حول نعيم ويوتام، ويطالب مهدي أياله أن ترافقه للبحث عن نعيم فترفض قائلة: «أنا لا أستطيع أن أذهب معك، أنت عربي!».(المرجع السابق، ص ٨٣).

ثم تراضيه، وتطالب أن يعزفا أغنية معا، وتضيف: «اسمع..أنا لا أقول نعم أو لا سأفكر. تعال نعزف». (المرجع السابق، ص ٨٣).

ونلاحظ هنا النظرة التي تنظر بها الطفلة أياله إلى مهدي، فهي تعتبره عدواً وسارقاً لأرض أجدادها، وهي نشأت على أن العرب مجرمون وقتلة، لذا هي لا تستطيع الذهاب معه. ولكن عندما تخسر الجميع، تفرح لرؤية مهدي قادم إليها، وتقول: «يا مهدي، كم هو رائع أنك جئت، الجرذان في كلّ مكان. أبي لم يعد وأمي اختفت عمتي ليئاه هنا وهي مريضة». (المرجع السابق، ص ١٤١).

ويتحادثان بود، ويطلب منها مهدي أن ترافقه للبحث عن يوتام ونعيم، فتطمئنه أنهما بخير، ففي مكان وجودهما «كل البيوت مدهونة بالأبيض..والأولاد يلعبون في الشوارع حتى وقت متأخر من الليل ولا يخافون الرصاص والقنابل».(المرجع السابق، ص ١٤٢).

وكأنها لم تعرف إلا حياة ليس فيها غير الرصاص، وكذلك مهدي الذي يندهش من حديثها، فتضيف: «ولا يوجد هناك جنود، ولا حتى مرافقون إلى المدرسة وفي أيام السبت يسبحون بين الأمواج. هناك يستطيع كل من يريد أن يكون مغنيّا». (المرجع السابق، ص ١٤٢).

يبتسم مهدي ويقول: هيّا نذهب إلى هناك، فتخبره أن المكان بعيد وناءٍ، فيقترح أن يحملها على كتفه.

وفي هذه اللحظات يأتي خليل مصاباً ترافقه رانيا بعد أن قتل بوعز، وكان قد نذر أن يقتل جميع عائلة بوعز بسبب فقدانه والديه وابنه، وعندما يتقدم من أياله شاهراً خنجره، يمنعه مهدي، قائلاً: «أنا أحرسها وهي تحرسني».(المرجع السابق، ص ١٤٤).

ويهوي خليل على الأرض ميتًا، ويختفي مهدي وأياله في الظلام.

وعلى الحاجز العسكري يلتقيان الطفل الفلسطيني المشرد، ذو العشرة أعوام، الذي يؤجر نفسه لأي شخص يريد عبور الحاجز، فالقوانين تنص على وجود طفل في السيارة للسماح لها بعبور الحاجز العسكري.

وهذا الطفل الفلسطيني دون جذور، إذ لا عائلة له، ولا نعرف ماذا جرى لها.

وهو طفل ذكي، استطاع الحصول على تعاطف الجندي شموئيلي، الذي قال له عندما عرف أنه بلا مكان يذهب إليه وان بلا عائلة ينام وسطها : «ولد في جيلك، حوّل، كان عليه أن يطوي الدفتر، ويقبّل أمه ويقول لها تصبحين على خير، ويلبس ملابس النوم وينصرف للنوم، حوّل!». (المرجع السابق، ص ١٠٨).

ويحيلنا هذا الكلام، عما جرى لعائلته، ومن تسبب بالكارثة لهذا الصبي.

ويرد الصبي بجرأة على شموئيلي: «شاب في جيبك، حوّل، كان يجب أن يتواجد الآن في السينما مع صاحبته، يعانقها بقوة ويخطط كيف يأخذها معه إلى شقّته، حوّل". (المرجع السابق، ص ١٠٨).

يحدثنا الكاتب هنا، عن تأثير الصراع، وكيف أدى إلى المعاناة والألم والعيش القاسي، ولكنه لا يبين لنا من الجلاد ومن الضحية، فيضعهما في سلة واحدة.

ينزف شموئيلي حتى الموت بعد طعنه من أحمد، الذي ينزف هو الآخر حتى الموت بعد أن تلقى رصاصة. وعندما ترى أياله الصبي الفلسطيني، تطالبه أن يرافقهما، وعندما يسأل إلى أين؟ يجيب مهدي، إلى المكان الذي يعيش فيه نعيم ويوتام يدا بيد، وتتدخل أياله قائلة: «إلى حيث يلعب الأولاد في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل، ولا يخافون الرصاص والقنابل».(المرجع السابق، ص ١٤٨).

ويبقى مهدي وأياله يتحاوران «مهدي:– وهناك لا يوجد جنود بالمرة.

أياله:– ولا مرافقون إلى المدرسة.

مهدي:– وفي أيام الجمعة ينظّمون الحفلات يرقصون هناك طوال الليل، وفي يوم السبت يسبحون في البحر». (المرجع السابق، ص ١٤٩).

عندها يقول الصبي الفلسطيني، إذن سأرافقكما.

ويركبون جميعهم العربية، وتتحرك، والأولاد يعزفون.

فاللقاء الذي تم بنجاح بين الإسرائيليين والفلسطينيين، كان عن طريق الطفلة الجميلة والحزينة على خسارتها عائلتها، والرجل الفلسطيني المتخلف عقلياً، والذي لا يدري ما يدور حوله، والصبي الفلسطيني الذي لا عائلة له، ولا يدري ما جرى لها. لذا من السهل على مهدي والطفل الفلسطيني أن ينسيا الماضي، وما ارتكبه الإسرائيلي بحقهم وحق عائلاتهم، من أجل بناء مستقبل الذي أشك بإمكانية أن يلتقي فيه الفلسطيني والإسرائيلي، حيث الإسرائيلي يرفض الاعتراف بجرائمه البشعة ، ويأبى تحمل المسؤولية الأخلاقية عن الدمار الذي أحدثه في حياة الفلسطيني التي كانت وادعه وجميلة قبل قدوم الصهيونية، التي حاولت التخلص من الشعب الفلسطيني بكل الطرق العنيفة وغير الإنسانية.

الخاتمة

مسرحية «الخليل» وإن أظهرت بعض الشخصيات الفلسطينية كبشر يتألمون ويحزنون، ويملكون أحلامهم ونكرياتهم، وإن كانت تتقدم على غيرها في الأدب الإسرائيلي في الحديث عن معاناة الفلسطينيين تحت الاحتلال، إلا أنها ما زالت تضع الجلاد والضحية في مرتبة واحدة، وتحملهما الاثنين مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في مدينة الخليل، والتي أخذت كنموذج للصراع الفلسطيني– الإسرائيلي.

ولا تقدم حلولا منطقية للصراع، وتكتفي بنقد الواقع من وجهة النظر الإسرائيلية.

المراجع

١. بريشيط، حاييم (دون تاريخ). فلسطين وإسرائيل في الأدب العبري الحديث. (إعداد حسن خضر). هوية الآخر. القدس/غزة. علامات سلسلة غير دورية تصدر عن وزارة الثقافة ودار فنون للطباعة والنشر، ١٤٥–١٩٨.

٢. غرينبرغ، تمير (٢٠٠٧م). مسرحية «الخليل». ترجمة سلمان ناطور، رام الله: منشورات مركز أوغاريت الثقافي، ط١.

٣. هلسا، غالب (١٩٩٥). نقد الأدب الصهيونيّ. عمان: دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، ط١.